● المبحث الثالث : مشكلة الشرك

سبق الحديث في المبحث السابق عن قول الله تعالى: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ [يوسف: ١٠٦]، وتبين لنا من التفاسير أن انتفاء الإيمان هنا سببه الشرك الذي يجعل الإيمان كالعدم ومنه تبينت لنا العلاقة الكبيرة بينهما، ونود الآن أن نفصل الحديث في كون الأكثرية مشركين، إذ أن في القرآن آيتين تبينان ذلك:

أما الأولى فهي من سورة الروم، وأما الثانية فمن سورة سبأ، وكلاهما مكية النزول، حيث كان القرآن يعنى عناية فائقة بالوحدانية ونبذ الشرك الذي تغلغل كما يبدو في نفوس المكيين أكثر من تغلغله في نفوس أهل المدينة الذين سارعوا إلى الإيمان كما لو أنهم لم يكونوا مشدودين لعقيدة أخرى تحجزهم عن العقيدة الجديدة.

١ – في سورة الروم جاء قوله تعالى: ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ** ﴾ [الروم: ٤٢]، الآية دعوة إلى تأمل تاريخ البشرية من لدن آدم إلى يومنا هذا مرورا بالأمم التي ذكرها الله في القرآن كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم فرعون، وغيرهم من الأمم التي لم يذكرها القرآن الكريم، إذ أن الظاهر أن القرآن كان يخاطب العرب بما يعرفون من حياة شعوب بائدة في الجزيرة العربية التي كانوا يذرعونها ذهابا وإيابا في ترحالهم، لأن ذلك أقرب إلى استثارة الحس التاريخي لديهم لعلهم يعتبرون.

أما الأمم الأخرى التي كانت بعيدة في إفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا فإن الله لم يشر للشعوب البائدة فيها بالذكر المخصص، وإنما وردت بصيغة سريعة شاملة في قوله تعالى: ﴿ **مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** ﴾ [غافر: ٧٨]، ﴿ **وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ**

﴿الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ [الفرقان: ٣٩]. ففي الآيات إشارات إلى أن قرونا كثيرة كانت قد أهلكت غير تلك المذكورة لم يحدثنا الله عنها، ورسلا كثيرين لم يقص علينا من أخبارهم مع شعوبهم ما كان من أمرهم، وكل ذلك يدخل في العصر الحديث ـ بعد أن صار العالم كالقرية الواحدة – في مجال العبرة والاعتبار والتأمل التاريخي الراشد.

ومن كل ذلك نستطيع أن نفهم معنى قوله تعالى: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]، فالأكثرية التي أهلكها الله كانت قد استحقت الاستئصال؛ لأنها فقدت مبررات الوجود بأن أشركت بالله وعاثت فسادا في الأرض، وتبين ذلك الآيات السابقة عن هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤٠–٤١].

قال البيضاوي المراد بالفساد الجدب وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات وكثرة المضار بشؤم المعاصي التي يرتكبها الناس(١).

والحديث عن كل ما يلحق الناس من عذاب نتيجة انتشار الفساد في البر والبحر كان يتوسط الحديث عن كثرة الشرك، مما يجعله سببا رئيسيا في ظهور البغي والفساد، فمن زاوية الرزق والكسب يعالج قضية الشرك وآثارها في حياة من قبلهم، ويعرض نهاية المشركين من قبل، وعاقبتهم التي تشهد بها آثارهم ... ثم يكشف لهم عن ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال الناس وكسبهم، وأن فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم يوقع في الأرض الفساد، ويجعله مسيطرا على أقدارها غالبا فيها ... فظهور الفساد هكذا واستعلاؤه لا يتم عبثا، ولا يقع

(١) البيضاوي: تفسير البيضاوي ٢/١٠٦

مصادفة، إنما هو تدبير الله وسنته ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ من الشر .. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فيعزمون على مقاومة الفساد ... ويحذرهم في نهاية هذه الجولة أن يصيبهم ما أصاب المشركين قبلهم، وهم يعرفون عاقبة الكثيرين منهم »[1].

لقد كانت أكثر الحقب التاريخية شركا بواحا، والشرك عصيان لا يغفر أبدا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨] ، وهو ظلم كبير في ميزان التصور الإسلامي ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] ظلم للحقيقة وظلم للفطرة ، وظلم في حق الذي يرزقنا ويحيينا ثم نتوجه بالعبودية لغيره .

والقرآن ينبئنا أن الشرك لم يعمر الحقب التاريخية في كل تاريخ البشرية على مستوى عبادة الأوثان المادية والبشرية فحسب، ولكن أكثر الناس كانوا يعبدون الجن، يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١] ، فالإشارة في قوله ﴿ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ تشمل من تقدم ومن تأخر من المشركين [2]، « والمعنى : بل أكثر هؤلاء يعبدون الجن وكان الجن راضين بعبادتهم إياهم وحاصل المعنى : أنا منكرون عبادتهم إيانا ولم نأمرهم بها، ولكن الجن سولت لهم عبادة غير الله فعبدوا الجن وعبدوا الملائكة« [3] .

والخطاب الموجه للملائكة، والإجابة التي أدلت بها، كلها تفيد « التعريض بضلال الذين عبدوا الملائكة والجن، لأن الملائكة يعلمون مضمون هذا الخبر»[4]، ويعلمون تنزههم عن الشرك والعصيان منذ قصة عصيان الشيطان للسجود لآدم . ومن ثم كان القصد من هذه الآية إبطال قول الناس الملائكة بنات

---

(١) في ظلال القرآن : ٢١ / ٢٧٧٢-٢٧٧٣ (٢) صفوة التفاسير : ٢ / ٥٥٨
(٣) التحرير والتنوير : ٢٢ / ٢٢٣ (٤) نفسه.

الله، وخلطهم بين الملائكة التي تتبرأ من الشرك والمشركين والجن الذين يحسِّنون ذلك للناس [1].

وعبارة ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ دالة على الأكثرية التي توجهت في عبادتها هذه الوجهة الظالمة التي لا يسندها أي منطق غير الأهواء وغواية الشيطان، وإلا فإن المنطق السليم يفترض أن تخلص العبادة للخالق والرازق.

والسبب في توجه أكثر الناس إلى الشرك قديما كالسبب في توجه أكثرهم إلى الإلحاد حديثا، إذ هو الحرص على عبادة المادة في الحالين؛ ففي القديم كانوا يعبدون الأصنام طمعا في أن تغدق عليهم من الأرزاق ما يشاءون باعتبارهم إياها واسطة بينهم وبين الله حتى قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، فهم يعبدونهم طمعا في شفاعتهم ووساطتهم، لاعتقادهم أنها تماثيل للصالحين من عباد الله، أو للمقربين من الملائكة، فهم «يزعمون أن عبادتهم لتماثيل الملائكة ـ وهي التي دعوها آلهة أمثال اللات والعزى ومناة ـ ليست عبادة لها في ذاتها، إنما هي زلفى وقربى لله كي تشفع لهم عنده وتقربهم منه ... وإنا لنرى اليوم في كل مكان عبادة للقديسين والأولياء تشبه عبادة العرب الأولين للملائكة ... طلبا لشفاعتهم عنده»[2].

وفي العصر الحديث صاروا إلى الإلحاد بسبب تأليه المادة والعلم التجريبي الذي يمثل ـ مع كل أسف ـ شيطان العصر، فقد غر الناس وأغواهم بسلطانه المبسوط على المادة فعبدوه بدلا من الرازق الحق، واعتصموا به اعتصام المؤمنين حقا بحبل الله المتين.

وهكذا نرى أكثر البشرية تنحرف عن منطق الفطرة كلما انحرفت عن التوحيد الخالص الذي جاء به الرسل جميعا، بغض النظر عن طبيعة الانحراف وسببه.

---

(١) نفسه: ٢٢١ – ٢٢٣ (٢) في ظلال القرآن ٢٤/٣٠٣٧